

اللجوء إلى الحرب في الإسلام

الأستاذ: بزيز محمد

أستاذ بالمركز الجامعي بالبيض

مقدمة

ارتضى الله لعباده الإسلام، كآخر ديانة سماوية، وكلّف بتبليغها للعالمين نبيه محمد(صلى الله عليه وسلم)، وهنا يهْمنا كثيرا الوقوف على نظرة الإسلام إلى الحرب، هل يُبيح هذا الدين اللجوء إلى الحرب كواجب شرعي، في كل الأحوال، كما يدعي خصومه؟ أم أن الإسلام نظّم مسألة اللجوء إلى الحرب، واعتبرها حلا استثنائيا لرد الاعتداء وفقا لما يراه أتباعه؟ وهنا نرى وجوب تحليل ومناقشة هذين التساؤلين، وعلة ذلك، أن الحروب المعاصرة، التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها، تنطلق من أساس واحد، وهو وجوب القضاء على الحركات الإرهابية، التي تبيح حرب الكفار، مما يدفعنا إلى الجزم، بأن حروب المستقبل ستأخذ بعدا عقائديا، لذا نرى أنه من الضروري تناول مشروعية الحرب في الإسلام وبيان الأساس الذي يحكم العلاقة بين المسلمين وغيرهم، كما نظّمها الإسلام الحنيف، ونقلها علماؤه، لا كما تمارسها بعض الجماعات، ويدعيه خصوم الإسلام وأعداؤه، وغرضنا من ذلك دفع كل إدعاء باطل، أو فهم خاطئ لروح وجوهر هذا الدين، وسمو رسالته، التي تدعو إلى السلام والتعارف بين بني البشر. ولنبدأ بمناقشة التساؤل الآتي: ما الدافع إلى الحرب في الإسلام؟

أولا: الباعث على الحرب في الإسلام:

إنّ القارئ لنصوص القرآن الكريم، وأحكام السنة النبوية في الحروب، يجد بأن الباعث على الحرب في الإسلام، ليس فرض الإسلام دينا على المخالفين، ولا فرض نظام اجتماعي، بل دفع الاعتداء.⁽¹⁾ بينما يرى بعض الأوربيين المتعصبين، أن الإسلام انتشر بالحرب⁽²⁾، وفي القرآن ما يدحض هذا الإدعاء ويثبت أن الإسلام يحرم العدوان تحريما مطلقا، بل ويدعو إلى رده دفاعا عن النفس والعقيدة، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

يحب المعتدين﴾ ﴿سورة البقرة . الآية 190﴾.⁽³⁾ ويمكن أن نورد هنا قضيتان، القضية الأولى: نافية

لكون الإسلام يبيح الحرب إكراها في الدين، ودليلها قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرِّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (سورة البقرة . الآية 256).

والقضية الثانية: مثبتة لكون الإسلام شرع الحرب لدفع الاعتداء وردة بنفس الوسيلة، ودليلها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿سورة البقرة . الآية 194﴾، وقد نص القرآن الكريم على وجوب التريث والصبر، في حال وقوع الاعتداء، إذا كان بالإمكان دفعه بغير قتال، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿سورة النحل . الآية 126. 127﴾.⁽⁴⁾

يجدر بنا هنا التأكيد على أن كل دعوة إلى مبادئ سامية، أو عقيدة صحيحة، تتطلب ممن يدعو إليها بذل الجهد في إيصالها، فإذا اعترضته في سبيل ذلك، قوة ملك أو حاكم متسلط أرهق شعبه، وضيق عليه في فكره، وحال بينه وبين الدعوات الصالحة، فإن من حق صاحب الدعوة إذا كان قادرا على قهر قوة ذلك الحاكم أو الملك، أن يستعمل قوته في سبيل الوصول إلى أولئك المستضعفين، وأن يطلعهم على دعوته، ويترك لهم حرية اعتناقها أو ردها. وعندما نستقرئ سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإننا نجد بأن النبي سلك في دعوته شعوب العالم طريقتين:

. دعوة الملوك والرؤساء في عصره إلى الإسلام، وتحميلهم الإثم إن لم يتبعوا دعوته.
. تعريف رعايا الشعوب المجاورة بحقائق الإسلام مما ساهم في اعتناق بعض أهل الشام الإسلام ممن خضعوا لحكم الرومان.

لم يتجه النبي (صلى الله عليه وسلم)، إلى حرب الفرس أو الروم، إلا بعد أن وقع الاعتداء على المؤمنين الذين دخلوا الإسلام من أهل الشام، فكان ذلك فتنة في الدين، وإكراها عليه، وما كان محمد ليسكت عنه ويرضى به، كما أن كسرى هم بقتل من جاءه بكتاب رسول الله، وأخذ يستعد لقتال المسلمين.⁽⁵⁾ وهنا حري بنا أن نقول: أنه يصعب على العقل أن يتقبل فكرة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يلجأ للقتال مطلقا في ظل الظروف التي عاشها، والتي بدأت باعتداء قريش عليه في مكة، ثم ظلت تلاحقه حتى بعد هجرته إلى المدينة، وقد اعتبرته خارجا عن قانونها، بل إنه واجه في المدينة عداء المنافقين واليهود، وبناء عليه أفلا يُعد جنوحه للقوة من قبيل الدفاع الشرعي؟⁽⁶⁾ وهو ما يدحض إدعاءات خصوم الإسلام، بأن حروب النبي (صلى الله عليه وسلم) كانت حروبا عدوانية.⁽⁷⁾

ثانيا: أقوال الفقهاء في الباعث على الحرب في الإسلام:

يتفق جمهور الفقهاء على أن الباعث على القتال في الإسلام هو رد الاعتداء، كما تدل على ذلك النصوص المحكمة، وإن كان بعض الشافعية، يرى في الكفر سببا يميز القتال دون أن يكون لرؤيتهم أساس قاطع، فالنصوص واضحة لا تقبل التأويل، ومنها الآية الكريمة التي تعد دستور القتال في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عَدَاوَةَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة . الآيات 190 . 193). وقد استنبط "ابن تيمية" من هذه الآيات الكريمات، أن القتال في الإسلام لا يكون إلا لرد الاعتداء، وذلك من وجوه عدة، نوردها على النحو الآتي:

. لا يجوز للمسلمين الشروع في القتال، إلا إذا هم غيرهم بقتالهم، تأسيسا على قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ﴾.

. لا يجوز للمسلمين قتال من لا يقاتلهم، وإلا اعتبر قتالهم اعتداء، وهذا في قوله تعالى: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾.

. أن الغاية من القتال، منع الفتنة، وهذا في قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾.⁽⁸⁾

يجدر بنا أن نشير، أن لفظ الإسلام . عنوان هذا الدين . مأخوذ من السلام، ومن أسماء الله "السلام"، فكيف يمكن تصور قيام هذا الدين على حروب الاعتداء. وقد أكد الفقه الإسلامي على العروة الوثقى، بين الإسلام والسلام، وأن الحرب إنما شرعت استثناء، مادام الأصل هو السلام.⁽⁹⁾ ومن أشكال العدوان التي تقع على المسلمين فتدفعهم إلى ردها بالقوة، ذلك العدوان الذي يحول دون نشر الدعوة الإسلامية، وكذا العدوان الذي يستهدف المسلمين في أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، ودليل مقاومته قوله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره،

إن الله لقوي عزيز﴾ (سورة الحج . الآيتان 39 . 40).

كما أوجب الإسلام مواجهة العدوان، الذي غايته فتنة المسلم، ودليل رده قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾. والمراد بالفتنة هنا، فتنة المسلم عن دينه، سواء تحقق هدف المعتدي أو لم يتحقق، ومن صورها، الاضطهاد، التعذيب، الإكراه المادي، الإكراه المعنوي، وكل ما يمكن أن يتعرض له المسلم، في سبيل رده عن الإسلام.⁽¹⁰⁾ ويمكن الرد على أولئك الذين يدعون بأن الإسلام شرع الحرب، لإكراه الناس على الدخول فيه، بالقول: إن الإسلام يقرر استحالة إيمان الناس بدين واحد، قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ (سورة يوسف . الآية 103). وقوله أيضا: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (سورة يونس . الآية 99). فكيف يستقيم إدعاء هؤلاء مع صريح هذه الآيات.⁽¹¹⁾ أما فيما يخص قول بعض الشافعية بشرعية القتال، وأن الآية التي تعد دستور الإسلام في القتال منسوخة أو مخصصة، يمكن الرد على ذلك من عدة أوجه:

أ. أن النسخ لا بد له من دليل، ولا يوجد ما يثبت النسخ أو التخصيص، يقول "ابن تيمية": «إن

دعوى النسخ تحتاج إلى دليل، وليس في القرآن ما يناقض هذه الآية، فأين النسخ؟»

ب. أن ما تتضمنه الآية من معان لا تقبل النسخ، ومنها النهي عن الاعتداء، والاعتداء ظلم،

والظلم محرم في كل الشرائع، حتى في أحكام العقول، والنهي عنه لا يقبل النسخ.

ج. لو سلمنا بجواز القتال بسبب الكفر، وافترضنا أن آية منع الاعتداء منسوخة، لكان الإكراه في الدين جائزا، وهو أمر باطل، لقوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي﴾ (سورة البقرة . مطلع الآية 256)، أضف إلى ذلك سلوك النبي (صلى الله عليه وسلم) مع أسرى المشركين، فلو كان القتل بسبب الكفر مشروعاً لكان جزاء هؤلاء الأسرى القتل.⁽¹²⁾

ثالثاً: الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم:

تتجلى حقيقة الإسلام في كونه عقيدة وعبادة وحكم، أي أنه دين ودولة، القرآن الكريم هو المصدر الأول لأحكامه، والتي جاءت عامة فيما يتعلق بتنظيم الشؤون العامة للدولة، وعلاقتها

مع غيرها من الأمم، ويجمع جمهور فقهاء المسلمين على أن الدولة الإسلامية تقوم في تكوينها على الوحدة الدينية، وأساسها شهادة (لا اله إلا الله محمد رسول الله)، وجميع من تشملهم هذه الوحدة يكونون أمة واحدة، وإن اختلفوا في اللغة، أو الجنس، أو الحكومات، أو سائر الصفات القومية الأخرى، وتعرف هذه الأمة **بدار الإسلام**.⁽¹³⁾

لقد حاول الرسول (صلى الله عليه وسلم) وضع تنظيم دولي إسلامي مبكر، من خلال جهوده في جمع الأقاليم المجاورة "فارس، بيزنطة، الحبشة" تحت راية الإسلام، فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وقويت شوكتها، اتجه الفقه الإسلامي إلى تأكيد ذاتية الإسلام، فابتدع تصوراً شاملاً يقسم الجماعة الدولية إلى دارين "دار إسلام. دار حرب".⁽¹⁴⁾ والثابت أن هذا التقسيم فرضه العدوان المستمر على الإسلام وأتباعه سواء في ديارهم، أو ديار أعدائهم، وفي الحالتين شرع القرآن الكريم الحرب، وقيد مشروعية استمرارية اللجوء إليها، بانتهاء العدوان، بدليل قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، إنه هو السميع العليم﴾ (سورة الأنفال . الآية 61)، وقوله: ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾ (سورة البقرة . الآية 192).⁽¹⁵⁾ ومن هنا يتضح لنا بجلاء، أن **الحرب في الإسلام شرعت لدفع الاعتداء**، وليس لحمل الناس على الدخول في

الإسلام، وبذلك يكون الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم السلم، حتى يقع الاعتداء، ودليل ذلك، قوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمناً، تبغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾ (سورة النساء . الآية 94)، ونستشف أيضاً من قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ بأن الحرب لم تشرع بسبب الكفر، فالكفار قد يجنحوا للسلم دون أن يؤمنوا، وهنا أوجب الإسلام على المسلمين الجنوح إلى السلم، ولو لم يؤمن من قاتلهم من الكفار.⁽¹⁶⁾

أما فيما يتعلق بأساس العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول، فقد انقسم علماء المسلمين إلى فريقين: يرى **الفريق الأول**، أن الإسلام يأمر بدعوة مخالفيه، إلى أن يدينوا به، فإن لم يستجيبوا بالحسنى وجب قتالهم، ويسوق هذا الفريق حججه بأن الجهاد فرض ولا يحل تركه بأمان أو موادة، وبأن الحرب هي أساس العلاقة بين المسلمين ومخالفهم في الدين، ما لم يطرأ ما يوجب السلم من إيمان وأمان، ومن ثمة فإن الحرب . في رأي هذا الفريق . تكون مشروعة إذا كانت موجهة لدار الحرب لنشر تعاليم الإسلام.⁽¹⁷⁾

ويذهب مع هذا الرأي الشافعي والشيبياني، ففي تقديرهما أن الأصل في العلاقات الدولية في الإسلام، إنما هو الحرب مع الديار غير الإسلامية، ما دام المجتمع الدولي قد انقسم إلى دارين أبديتين "دار الإسلام ودار الحرب"، غير أن هذا التوجه يتناقض مع أصول الفقه الإسلامي، التي تقرر . وبالإجماع . أن الأصل العام في

الأشياء الإباحة . أي الخلو من التكاليف وذمة البراءة . فكيف يكون الأصل في العلاقة مع غير المسلمين هو الحرب.⁽¹⁸⁾

أما الفريق الثاني . وهم جمهور فقهاء المسلمين . فيرون بأن أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم، هو السلم وليس الحرب كقاعدة عامة، وأن اللجوء إلى الحرب هو استثناء من هذه القاعدة.⁽¹⁹⁾ ووفقا لهذا الرأي، فإن الحرب المشروعة في الإسلام، لا تقوم إلا في حالتين:

1 . حالة الدفاع عن النفس وعن الدعوة الإسلامية:

المتأمل في حال المسلمين في بداية الدعوة في مكة، يقف على حجم المعاناة التي لقيها المسلمون من قريش، حتى أكرهوا على الهجرة إلى المدينة، ليواجهوا عدوانا آخر من اليهود والمنافقين، وكلما همت نفوسهم بالرد أو الانتقام، منعهم الرسول وشدّد عليهم بالصبر، حتى يأذن لهم الله بالقتال، وظلوا على ذلك حتى شرع الله القتال دفاعا عن النفس والعقيدة، وهذا ما تضمنته الآيات من 38 إلى 41 من سورة الحج، والتي أقرت في مضمونها، وجوب التلازم بين مبدأ حرية الدين، ومبدأ الدفاع الشرعي، لرد كل عدوان قائم.⁽²⁰⁾

2 . حالة الإغاثة لشعب مسلم أو لأحد من الحلفاء:

تجد هذه الحالة أساسها في قوله تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾ (سورة النساء - الآية 75).⁽²¹⁾ وترشد الآية الكريمة، إلى وجوب محاربة الظلم والفساد في الأرض، ولو وقع في دولة غير مسلمة، لأن أي اعتداء بغير حق، هو اعتداء في حق البشرية، مصداقا لقوله تعالى: ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾ (سورة المائدة - الآية 32).

ويكون الواجب ملزما، إذا كان هناك عهد أو ميثاق للمساعدة المتبادلة... ذلك لأنه يقتزن بواجب آخر، هو واجب الوفاء بالالتزامات التعاهدية، المقدم على واجب التناصر بسبب الدين، لقوله تعالى: ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر، إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ (سورة الأنفال - الآية 72) لذا يجوز للدولة الإسلامية اللجوء إلى الحرب خارج النطاق الإقليمي للجماعة الإسلامية، إذا توفرت شروط ثلاثة هي:

. أن تطلب الجماعة المستضعفة المعتدى عليها . على أن تكون عاجزة عن رد العدوان أو الهجرة إلى دار الإسلام . الإغاثة.

. ألا تكون ثمة معاهدة أو عهد أو ميثاق، يقيد الدولة الإسلامية في مواجهة الدولة المعتدية . أن يسبق تدخل الدولة الإسلامية في القتال، إغذار إلى الدولة المعتدية بالكف عن العدوان.⁽²²⁾

مما سبق، يتبين لنا أن الأساس في علاقة المسلمين بغيرهم، هو السلم، وأن الاستثناء هو الحرب، وهنا يبرز بإلحاح التساؤل الآتي: لماذا تم تقسيم الجماعة الدولية إلى دار إسلام ودار حرب؟ وهذه المسألة نفضل مناقشتها في الفقرة الموالية.

رابعاً: دار الحرب ودار الإسلام:

وردت هذه التسمية في كتب الفقه الإسلامي، وهي ثابتة، وهذا التقسيم أملاه حكم الواقع، لا حكم الشرع، فبعد انتشار الإسلام، اعتنقه الناس من كل جنس وعرق، فقويت بذلك شوكة المسلمين، فما كان من الملوك في أقصى الأرض، وأدناها، إلا التأهب لحرب المسلمين، لأن حقائق الإسلام القائمة على العدل والمساواة والحرية، لا تتفق والملكية المطلقة التي ميزت ذلك الزمان، مما دفع أولئك الملوك، إلى حرب المسلمين والحيلولة دون انتشار الإسلام في أراضيها وبين شعوبها، أضف إلى ذلك أن العالم آنذاك، كان محكوماً بقانون الغاب القائم على القوة، فكان لزاماً - بحكم الواقع - على المسلمين مواجهة أعدائهم وحماية دعوتهم والدفاع عنها.⁽²³⁾

هذا الواقع هو الذي حدا بالفقه الإسلامي التقليدي، إلى تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب. وهنا نتساءل: كيف نظم الفقه الإسلامي حدود الدارين؟ وهل لهذا التقسيم معنى في عصرنا الحالي؟ انشغل الفقه الإسلامي بتعريف دار الإسلام وتمييزها عن دار الحرب، فركز الشافعية اهتمامهم على تعريف كل دار على حده، مع إضافة دار ثالثة هي دار الصلح، أودار العهد، وتسمى أيضاً دار المودعة، وهي مستقلة بذاتها عن الدارين - دار الإسلام ودار الحرب - ولكنها تدفع الجزية لدار الإسلام، أو تتنازل عن جزء من إقليمها لدار الإسلام.⁽²⁴⁾ وتعتبر الدار دار حرب. وفق ما يراه أبو حنيفة. إذا تحققت شروط ثلاثة مجتمعة، فإذا تخلف أحدها لم تعد كذلك، والشروط هي:

- أ. أن يسري على حكم أهلها قانون مخالف للإسلام، يبيح ما حرمه الإسلام من (خمر، ربا..).
 - ب. أن يكون إقليم هذه الدار متاحاً للديار الإسلامية، متوقع منه العداء، ويكون ممنوعاً على المسلمين.
 - ج. ألا ينعم المسلم ولا الذمي فيها بحكم الإسلام.⁽²⁵⁾
- يشرح "الكلساني" حجة أبي حنيفة بقوله: «أن المقصود من إضافة الدار إلى الإسلام أو الكفر، ليس هو عين الإسلام أو الكفر، وإنما المقصود هو الأمن والخوف، ومعناه، أن الأمان إن كان للمسلمين على الإطلاق والخوف للكفرة على الإطلاق، فهي دار إسلام، وإن كان الأمان فيها للكفرة على الإطلاق والخوف للمسلمين على الإطلاق، فهي دار كفر». وتأسيساً على ما سبق، إذا قامت علاقات دولية تؤمن كل إنسان في أية دولة يحل فيها، من غير عقد ولا حلف، فإنها - على تعريف أبي حنيفة - ليست بدار حرب.⁽²⁶⁾
- إن ما يوجه من نقد للفقه الإسلامي التقليدي، أن تقسيمه لا يساير عصرنا اليوم، ذلك لأن هناك دولا من الصعب تحديد هويتهما، فتركيا التي يدين شعبها وحكامها بالإسلام، نجد بأن قوانينها تخالفه. وقد يكون الحاكم غير مسلم، وغالبية شعبه تعتنق الإسلام، فأين يمكن تصنيف هاتين الدولتين؟⁽²⁷⁾

نخلص إلى القول بأن الإسلام ينظم العلاقات الدولية على أساس السلم، ضمانا لاستقرارها، ويبيح للدول اللجوء إلى الحرب متى تعرضت للاعتداء، وبلغه القانون فإن المقصود أن القاعدة العامة التي تحكم العلاقات الدولية في الإسلام، هي السلم، وأن الاستثناء عليها هو الحرب.

الهوامش

- (1) محمد أبو زهرة، "نظرية الحرب في الإسلام"، المجلة المصرية للقانون الدولي، المجلد 14، 1957، ص 06.
- (2) مصطفى كامل شحاته، الاحتلال الحربي وقواعد القانون الدولي المعاصرة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2001، ص 89.
- (3) نظر في ذلك: إبراهيم الدراجي، جريمة العدوان ومدى المسؤولية القانونية الدولية عنها، منشورات الحلبي الحقوقية، الطبعة 1، 2005، ص 135.
- (4) محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 06.
- (5) محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 07. 08.
- (6) محمد طلعت الغنيمي، قانون السلام في الإسلام (دراسة مقارنة)، منشأة المعارف، الإسكندرية، دون سنة طبع، ص 53. 54.
- (7) أنظر في الرد على أن الإسلام دين حرب وعدوان، محمد طلعت الغنيمي، المرجع السابق، ص 39. 56.
- (8) محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 10.
- (9) حازم محمد عتلم، قانون النزاعات المسلحة الدولية، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة 1، 2002، ص 55. 57.
- (10) إبراهيم الدراجي، المرجع السابق، ص 136. 138.
- (11) مصطفى كامل شحاته، المرجع السابق، ص 89.
- (12) محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 11.
- (13) عبد الواحد محمد الفار، القانون الدولي العام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1994، ص 452. 453.
- (14) محمد طلعت الغنيمي، المرجع السابق، ص 63.
- (15) محمد حازم عتلم، المرجع السابق، ص 85. 59.
- (16) محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 12.
- (17) عبد الواحد محمد الفار، المرجع السابق، ص 453.
- (18) محمد حازم عتلم، المرجع السابق، ص 60.
- (19) مصطفى كامل شحاته، المرجع السابق، ص 91.
- (20) لتفاصيل أكثر أنظر: عبد الواحد محمد الفار، المرجع السابق، ص 453. 455.
- (21) مصطفى كامل شحاته، المرجع السابق، ص 90.
- * ما أقره الإسلام بهذا الخصوص، هو نفسه الذي قامت على أساسه عصبة الأمم، ثم الأمم المتحدة في النصف الأول من القرن العشرين ميلادي، وقد ورد في (المادة 01)، من ميثاق الأمم المتحدة.
- (22) عبد الواحد محمد الفار، المرجع السابق، ص 457. 458.
- (23) لتفاصيل أكثر راجع: محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 14. 15.
- (24) محمد طلعت الغنيمي، المرجع السابق، ص 63.
- (25) محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 16.
- (26) محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 17.
- (27) محمد طلعت الغنيمي، المرجع السابق، ص 65.

L'apport des SIC dans le débat public pour une « écocitoyenneté ».

SIC (sciences de l'information et de la communication)

AUTEUR : Lamia MOUMENE Dr en communication université d'Annaba

Introduction

A l'heure actuelle, la grande majorité des ménages a une connaissance très limitée de ses consommations énergétiques au sein de son logement. Ceci est principalement dû au fait que l'énergie ne se manifeste pas à eux sous une forme « concrète » dans la mesure où ces derniers n'utilisent pas directement de l'énergie mais l'utilisent plutôt à travers des appareils et des produits.

Souvent, le seul suivi énergétique d'un logement se fait au niveau de l'index du compteur ce qui entraîne une vision limitée voire même une absence de vision, des conséquences de leurs comportements et de leurs choix sur la consommation en énergie.

Il nous semble ainsi que les conditions ne sont pas remplies pour que le consommateur puisse prendre en main sa propre consommation énergétique. C'est pourquoi, l'ensemble de la communauté scientifique internationale s'accorde aujourd'hui à dire qu'il existe un écart important, ou du moins, non maîtrisé, entre les performances énergétiques prévues par simulation et les consommations réelles.

Ce constat a fait partie des conclusions de la première partie du projet de recherche SIMBIO¹ regroupant des acteurs majeurs de la recherche dans ce domaine en France.

Dans ce cadre l'Algérie n'échappe pas à ce problème de sur consommation énergétique. Et ce, même si notre pays reste certes conforté par ses richesses dans ce domaine plus que les autres pays non producteurs de moyens énergétiques types hydrocarbures et de gaz.

Ce qui ne nous empêche pas de nous inscrire dans cette politique de bonne gestion de consommation énergétique à l'échelle du pays comme à l'échelle du citoyen pour un développement durable.

Qu'elles en sont les causes ?

Parmi les facteurs responsables de ces différences en terme de consommation et/ou de surconsommation; le plus cité reste le comportement des utilisateurs. Même si d'autres facteurs expliquent cet écart tels que les perturbations climatiques, la mauvaise mise en œuvre des matériaux, la dégradation de leurs propriétés au cours du temps ou, plus en amont, l'inexactitude des modèles utilisés dans les outils de calcul ; l'usage que font les occupants des équipements et des systèmes énergétiques, influent sur les consommations au niveau des domiciles comme au niveau des bâtiments.

En effet, un bâtiment ne peut être efficace énergétiquement que par l'usage « intelligent » que font ses occupants des équipements et de leurs systèmes.

Récemment, plusieurs projets liant le sujet des économies d'énergie et des comportements des usages sont apparus tels que BeAware², DEHEMS³ ou Beywatch⁴. Tous ces projets s'intéressent principalement à la mesure des consommations énergétiques dans le bâtiment avec un retour en temps réel pour en aviser les occupants et tendent à montrer que ces derniers réalisent des économies d'énergie en réduisant les usages des équipements sur lesquels ils peuvent obtenir des informations en consultant l'interface de feedback.

Impliquer et débattre avec les utilisateurs de l'élaboration de ce type de service de retour d'information en temps réel devient indispensable pour élaborer des contenus interactifs et attractifs.

C'est dans cette optique que la diversité des approches et dispositifs convoqués par les SIC (sciences de l'information et de la communication) peuvent permettre d'instaurer, de développer et d'analyser un véritable débat public autour de la démarche de co-conception

avec non seulement les citoyens mais l'ensemble des acteurs concernés par la gestion responsable de la consommation énergétique.

La notion de co-conception de produits et d'usages innovants fait émerger la possibilité d'intégrer non seulement les usagers au processus de conception « participative », mais aussi la notion d'usage au quotidien du produit en conception.

Cependant, il ne faut pas oublier qu'il n'est pas évident d'inciter les usagers à modifier leurs comportements, surtout lorsque leur sensibilité vis-à-vis des problèmes du développement durable et de l'énergie n'est pas prépondérante.

Tous ces facteurs sont essentiels pour valider une action de « conscientisation » aussi belle que justifiée soit elle.

De même, les recherches ont montré que le passage à l'acte ne se faisait que si celui-ci avait un sens connu.

Dans notre cas, parmi ces facteurs ; à du côté volet sanitaire, c'est l'argument économique qui pourrait être un levier d'incitation très important.

Et, c'est dans ce contexte que les SIC peuvent apporter une réflexion et, ou un dispositif sociotechnique ⁵ permettant de contribuer efficacement aux débats publics autour des enjeux de la maîtrise de la consommation énergétique.

Le développement durable semble participer à un mouvement de fond des sociétés qui peut être défini par un certain déplacement des pratiques démocratiques, vers une implication et une participation plus directe des individus à la gestion des sociétés (DUCROUX 2003) ⁶, soit, selon BRODHAG (2003) ⁷, une nouvelle forme de gouvernance.

Les SIC et le développement durable.

Dans un univers de plus en plus globalisé, les problématiques environnementales économiques et sociales liées au développement durable et inspirées par une culture humaniste, interrogent les citoyens que nous sommes sur nos pratiques, sur notre responsabilité tant individuelle que collective, ainsi que sur notre appartenance à une nouvelle citoyenneté planétaire (AUBERTIN, VIVIEN 2007) ⁸.

Le développement durable appelle ainsi de nouvelles formes de communication et de nouvelles pratiques de médiation.

Elles assurent dans l'espace public, l'appropriation singulière, par leurs lecteurs ou leurs usagers d'une manière générale, des informations qui constituent la culture collective caractéristique d'une identité, d'un groupe social ou d'un pays, à un certain moment de son histoire.

Les SIC à travers une démarche de co-conception développent une solution technologique innovante permettant d'encourager les comportements *éco-responsables* chez des familles.

Par exemple à travers un afficheur (compteur d'électricité...), un ensemble de contenus personnalisés seront proposés aux parents comme aux enfants, allant de la simple information jusqu'à la suggestion d'action pour réduire les consommations d'énergie.

Des ateliers de *design* participatif itératifs permettront aux familles d'orienter fortement les spécifications de la solution afin qu'elle corresponde au plus près à leurs besoins et à la question de sociabilité et de médiation culturelle que couvre le champ de recherche des sciences de l'information et de la communication.

L'objectif du service du projet

A l'heure actuelle, la facture d'énergie est un instrument à vocation purement comptable, difficilement utilisable pour une véritable gestion des consommations, d'abord parce qu'elle est transmise tardivement et souvent sous forme d'estimations, et ensuite, parce que les informations sont présentées sous une forme ne permettant pas aisément de comprendre les facteurs qui influencent les consommations.

Ainsi les conditions ne sont pas remplies pour que le consommateur puisse prendre en main sa propre consommation énergétique.

C'est dans ce contexte que s'inscrit ce projet qui vise à limiter les consommations énergétiques des foyers ou ménages et indirectement des bâtiments grâce à une interface de suivi permettant de fournir aux consommateurs un retour sur leur propre consommation d'énergie.

L'objectif du projet est de mettre à disposition des consommateurs au moment approprié et sous la forme appropriée, définis en accord avec les usagers de ce service, les informations synthétisées qui leur permettront d'identifier leurs processus énergivores et de prendre des décisions pertinentes pour diminuer leur consommation.

Ce projet propose une réponse innovante au défi global de limitation des consommations énergétiques tout en impliquant les utilisateurs dans le *design* d'une solution de suivi énergétique.

Pour que les systèmes capables de visualiser, gérer et/ou suivre l'énergie consommée par des équipements ou un ménage dans son ensemble soient efficaces, il est nécessaire d'avoir une compréhension profonde, englobant les sciences sociales, les facteurs contextuels, *l'utilisabilité* et les recherches en conception centrés sur les utilisateurs (interaction design).

C'est pourquoi le projet propose une démarche de co-conception sous la forme d'une série d'ateliers pour définir clairement les besoins des utilisateurs selon leur profil.

Ces ateliers amèneront les familles à travailler sur la définition de leurs besoins en matière énergétique puis sur les interfaces d'un prototype.

Les profils, des familles peuvent être volontairement très diversifiés (selon les types de logement, sexe, âge, et les catégories socioprofessionnelles..).

Une analyse différenciée sera effectuée en fonction du profil des volontaires. Les enseignements tirés au cours de ces ateliers seront, les résultats majeurs du projet : il sera possible en particulier de les mettre en perspective inspirés et comparées avec d'autres travaux similaires effectués dans d'autres villes du pays, voire d'autres pays Européens ou autres d'ailleurs.

Pour exemple, ce constat a fait partie des conclusions de la première partie du projet de recherche SIMBIO¹ qui a regroupé des acteurs majeurs de la recherche dans ce domaine en France, révélant la nature des facteurs responsables des écarts de consommation attendus.

Parmi les facteurs responsables de cet écart, le comportement de l'utilisateur reste un déterminant majeur. Même si d'autres facteurs sont responsables de cet écart tels que les perturbations climatiques, la mauvaise mise en œuvre des matériaux, la dégradation de leurs propriétés au cours du temps ou, plus en amont, l'inexactitude des modèles utilisés dans les outils de calcul, l'usage que font les occupants des équipements et systèmes énergétiques influe sur les consommations du bâtiment.

L'évaluation du comportement réel des habitants a fait l'objet de peu de travaux jusqu'à présent mais intéresse aujourd'hui la communauté scientifique.

Il est à noter que plusieurs rapports traitant de l'efficacité énergétique mettent en avant le rôle que peuvent jouer les occupants sur les consommations par des changements de comportements.

Le comportement des occupants d'un bâtiment peut avoir plus d'impact sur les consommations énergétiques que la performance des équipements. Un bâtiment ne peut être efficace énergétiquement que par l'usage intelligent que font les occupants des équipements et des systèmes. Récemment, plusieurs projets liant le sujet des économies d'énergie et des comportements des usagers sont apparus tels que BeAware¹², DEHEMS³ ou Beywatch⁴. Tous ces projets s'intéressent principalement à la mesure des consommations énergétiques dans le bâtiment avec un retour en temps réel pour en aviser les occupants.

Ces projets de recherche montrent que les usagers réalisent des économies d'énergie en réduisant les usages des équipements sur lesquels ils peuvent obtenir des informations en consultant l'interface de feedback.

Actuellement, les méthodes de l'ingénierie intègrent classiquement la notion d'usage grâce aux notions de besoin ou de valeur dans les processus de conception, avec notamment les méthodes d'analyse fonctionnelle et d'analyse de la valeur.

Cependant ces méthodes ne permettent pas de prendre en compte l'usage quotidien et les modes de vie des usagers, pour guider les choix de conception.

Impliquer les utilisateurs de l'élaboration de ce type de service de retour d'information en temps réel devient indispensable pour élaborer des contenus interactifs et attractifs. La notion co-conception de produits et d'usages innovants fait émerger la possibilité d'intégrer non seulement les usagers au processus de conception (comme c'était déjà le cas dans les méthodes de conception participatives), mais aussi la notion d'usage au quotidien du produit en conception.

Il faut à ce niveau prendre en compte l'hypothèse d'un dépassement de la vision éthique de la responsabilité, suggérée et appuyée justement par la dimension esthétique (besoin/envie/beauté) qu'autorisent les évolutions technologiques, une sorte de réévaluation esthétique de la consommation, qui consisterait peut-être en art du peu : un art du moins.

Cela implique un changement culturel des habitudes de consommation envisagé comme une évolution sociétale...

Alors quels seraient les attendus de l'implication des usagers et des utilisateurs ?

Les principaux attendus concerneront :

- L'estimation des opinions initiales et de leurs éventuelles évolutions
- La contribution à la définition des contenus et services, et
- leur présentation
- L'ergonomie des interfaces utilisateurs
- Le type d'objet afficheur utilisé
- L'identification des postes pertinents de mesure des consommations
- L'identification des comportements de régulation énergétique
- L'identification des services annexes (météo..).

Etude des éco-comportements :

Avec un panel de familles suffisamment varié, on peut s'attendre à ce que les options initiales vis-à-vis de l'efficacité d'un comportement écologique pour réduire la consommation d'énergie soient assez différenciées dans la population des volontaires. Par exemple, à des attitudes militantes conduisant à un intérêt initial pour le prototype de suivi des consommations ; pourront s'opposer des attitudes plus indifférentes voire désintéressées.

Le recueil par questionnaire de données qualificatives concernant les éco-comportements avant et après le projet doit permettre d'identifier d'une part les freins, les croyances initiales et d'autre part les éventuels effets des informations du suivi énergétique sur les options initiales.

Il est néanmoins important de tenir compte des limites du projet qui ne permettra pas de cerner les causes et raisons profondes de motivations et des freins associés à l'éco-comportement.

Les indicateurs de sensibilité éco-citoyenne.

Il paraît nécessaire de faire précéder toute enquête par une étude exploratoire qualitative de type focus group associée à des techniques projectives (test d'association, TAT, tests d'expression,...etc.).

Cette démarche permettrait de déterminer des attentes, croyances ou de dépasser certaines inhibitions (écran de la conscience, de tolérance d'irrationalité ou de politesse) pouvant expliquer une acceptation totale ou partielle des éco-comportements.

Dans cette optique il faudrait pouvoir arriver à déterminer des indicateurs de sensibilité éco-citoyenne et les intégrer directement ou de façon induite au niveau de l'enquête et de l'étude exploratoire.

Il peut être aussi envisageable de développer des séances de créativité intégrée ou non à des ateliers *design*.

Il semblerait intéressant de porter un regard sur la création par le dessin avec la caméra comme témoin qui reste dans cette logique artistique mais qui propose un recul dans le temps (après ce qui est nommé « le temps réel » pour les ateliers design dans le dossier).

Des tests « d'eye tracking » pourraient être appliqués à l'étude ergonomique . Des séances de tests individuels sur l'échantillon de volontaires permettent de déterminer où se pose leur regard sur l'interface testée.

Cela permet de mesurer les zones qui sont vues, lues, utilisées ou ignorées.

Cette méthode renseigne avec pertinence sur l'utilisabilité d'une interface, les comportements, les erreurs et les attentes des utilisateurs. Les données obtenues lors des tests sont présentées sous forme visuelle.

L'exploitation des résultats de ces tests permettent une amélioration significative des interfaces.

Les interactions économie et environnement

Les interactions effectuées peuvent également être tracées et constitueront aussi des données brutes à partir desquelles la validité et la pertinence des interfaces seront évaluées :

- *Actions effectuées dans l'environnement de partage d'information,*
- *Animation de la communauté d'utilisateurs :*

Le contenu de l'afficheur sera personnalisé afin d'impliquer les différents membres de la famille et d'animer des discussions.

Un animateur externe que l'on dénommera : Community Manager ; utilisera l'afficheur pour créer des dynamiques au sein de la communauté.

Son rôle sera d'impliquer les familles et de les écouter.

L'objectif de l'écoute est de détecter les tendances, d'identifier les signaux et d'examiner les opinions en temps réel pour réagir immédiatement sur le dispositif ou la compréhension des messages.

Ces différents échanges seront ensuite analysés et viendront enrichir les données recueillies à partir des questionnaires d'opinions.

Pour que les particuliers soient sensibilisés aux économies d'énergie et puissent mettre en œuvre les comportements adéquats, il est nécessaire de leur fournir une information leur permettant de mieux connaître les postes de consommation dans leur logement et de les mettre directement en relation avec leurs comportements élémentaires (action sur les dispositifs installés dans l'environnement).

Les attentes et les besoins du projet sont les suivants :

- Concevoir avec les utilisateurs le contenu d'une information contextuelle pertinente pour donner les moyens aux consommateurs de diminuer et de flexibiliser leur consommation d'énergie ;
- Concevoir un système d'information prototype avec des interfaces définies vers le client mais éventuellement aussi vers le distributeur, le fournisseur ... ;
- Qualifier et quantifier la flexibilité utile au réseau électrique du point de vue économique (minimiser le prix d'achat de l'énergie) et du point de vue de la fiabilité ;
- Présenter l'information sous une forme facile à comprendre ;
- Tracer les interventions sur les actionneurs ;
- Tracer les consultations pour déterminer les indicateurs les plus pertinents ;
- Préciser les protocoles d'analyse des usages et les méthodes envisagés pour évaluer l'expérimentation auprès des usagers (utilisateurs) ?

Les principes généraux de l'évaluation des usages et utilisations sont les suivants :

- Etude exploratoire qualitative des motivations et freins en termes d'éco-comportements de type focus group, associée à des techniques projectives comme les tests d'associations, d'aperception de thème et/ ou des techniques d'expression de type jeux de rôle ou technique de la tierce personne.

Ces études peuvent être associées à des ateliers de définition des besoins ;

- Elaboration d'un questionnaire d'opinion vis-à-vis des comportements écologiques et des économies d'énergie.

Ce questionnaire sera administré avant et après l'expérimentation de façon à mettre en évidence d'éventuelles modifications d'opinions ;

- Ateliers de définition des besoins ;
- Séance de créativité (Brainstorming) ;
- Confrontation à des outils existants sur le marché ;
- Atelier de design participatif itératifs ; film des ateliers design notamment ;
- Mise en place d'ateliers d'architecture ;
- Animation par le (s) Community Manager ;
- Expérimentation grandeur avec débriefing en fin de séance avec les participants afin de recueillir leur opinion en condition réelle,
- La pertinence des informations renvoyés par l'interface.

Il ne faut pas oublier qu'il n'est pas évident d'inciter les usagers à modifier leurs comportements, surtout lorsque leur sensibilité vis-à-vis des problèmes du développement durable et de l'énergie n'est pas prépondérante.

Conclusion :

Nous avons vu la nécessité d'aboutir à une meilleure convergence avec les besoins réels des utilisateurs en terme d'énergie ,exemple que nous avons prie afin de montrer la place des SIC.

Ce projet propose un système d'instrumentation des logements à travers le comportement des utilisateurs ; pour réaliser un suivi précis des consommations, que ce soit la consommation globale ou par poste/ équipement.

Il propose d'assembler toutes les briques technologiques et des SIC permettant d'assurer un tel suivi tout en travaillant avec et pour les consommateurs afin de déterminer leurs besoins tant sur les informations dont ils ont besoin (pertinence dans le choix des capteurs) que sur la manière de les présenter (pertinence des interfaces et du type d'afficheur, offre éventuelle de services associés).

En s'attaquant directement à la problématique de l'amélioration de la gestion de l'énergie, ce projet participe à une meilleure gestion à terme des ressources globales, ce qui constitue un enjeu d'avenir pour nos sociétés et s'inscrit dans les problématiques actuelles du Ministère de l'Ecologie, du développement durable, des transports et du logement.

Dans cette optique, nous avons choisi de nous intéresser dans ce projet plus spécifiquement aux problèmes et débats suscités par la maîtrise de la consommation d'énergie.

Le comportement des occupants d'un bâtiment peut avoir plus d'impact sur les consommations énergétiques que la performance des équipements.

Cette publication montre de quelles manières les SIC peuvent permettre d'instaurer, de développer et diffuser un véritable débat public au niveau des principaux acteurs concernés par les problématiques d'une « écocitoyenneté ».

Enfin et par conséquent ; cette publication montre la place et l'apport des SIC dans le débat public pour un développement durable.

BIBLIOGRAPHIE

1. SIMBIO : [http:// www.cstb.fr/actualites/webzine/editions/edition-davril-2009/simbio-pour-des-batiments-economes-en-energie.html](http://www.cstb.fr/actualites/webzine/editions/edition-davril-2009/simbio-pour-des-batiments-economes-en-energie.html)
2. BeAware. Boosting Energy Awareness with adaptive real-time environments, Mai 2008, project reference: 224557, FP7-ICT-2008. Un résumé du projet est accessible à l'adresse suivante: http://cordis.europa.eu/fetch?CALLER=FP7_PROJ_EN_ET_ACTION=D_ET_DOC=11_ET_CAT=PROJ_ET_QUERY=011_bdf00d646:2571:6c25b59c_et_RCN=87608
3. DEHEMS2. Digital environmental Home Energy Management System, 2008, "Project Référence : 224609, FP7-ICT. Un résumé du projet est accessible à l'adresse suivante : [http:// cordis.europa.eu/fetch ?CALLER=PROJ ICT ET ACTION=D ET DOC=5 ET CAT=PROJ ET QUERY=011bdf00646 :2571 :6c25b59c et RCN=87608](http://cordis.europa.eu/fetch?CALLER=PROJ_ICT_ET_ACTION=D_ET_DOC=5_ET_CAT=PROJ_ET_QUERY=011bdf00646:2571:6c25b59c_et_RCN=87608)
4. BEYWATCH. Building Energy Watcher, décembre 2008, project Référence : 223888, FP7-ICT. Un résumé du projet est accessible à l'adresse suivante : [http://cordis.europa.eu/fetch ?CALLER=PROJ ICT ET ACTION= D ET DOC=1 et cat+proj et query+0121F82B1291/24B143A0 ETRCN=89235](http://cordis.europa.eu/fetch?CALLER=PROJ_ICT_ET_ACTION=D_ET_DOC=1_et_cat+proj_et_query+0121F82B1291/24B143A0_ETRCN=89235)
5. DUCROUX ANNE MARIE, 2003, LES NOUVEAUX UTOPISTES DU DEVELOPPEMENT DURABLE ? AUTREMENT ? PARIS ? 344 PAGES.
6. BRODHAG Christian et al. (2004), dictionnaire du développement durable, AFNOR, Paris, p74, 284 pages.
7. AUBERTIN Catherine, VIVIEN Franck-Dominique, 2007 le développement durable : Enjeux politiques, économiques et sociaux, études de documentation française n° 5226, Paris, 144 pages.

